طرائف وقصص

شيء كالربيع

« إلى الباحثين عن حقيقة الفن وعشاق الجمال »

للاستاذ محمد أمين (البندق)

كان « المطعم الروماني » في ذلك اليوم غريب الزحام ، وما ذاك إلا لأن أوفيليا الحسناء كانت منذ أيام قد راحت تتردد إلى زبائنها الكثيرين فوعدتهم بأشهى طبق من طيور الصيد، تقدمه إليهم بغير زيادة على ثمن الوجبة المعهود ، إذا ماعاد زوجها من رحلة الصيد في السبت ، وكان ذلك اليوم هو يوم السبت . وإذن فقد كان على أن أرضى وأرضى معي زميلي روزاي بتلك المائدة المهجورة عند باب لايكاد يقفل حتى يفتح من جديد . وكان علينا أن نروض النفس أيضاً على الصبر . فالخادم الكهل جيانينو بعد أن جاءنا بالنبيذ قد شغله الزحام مرة أخرى ، فما عاد يستجيب لندائنا عليه بأكثر من « نعم ياسيدي . حاضر . »

على أن الانتظار في الحق لم يكن يضنينا . فقد كان صاحبي يتسلى بأن يرسم على ظاهر قائمة الطعام صورة بارعة لذلك المتسول الشيخ الذي جلس على مقربة منا وهو يعزف أنغام الفرح الصاخب على (الفيزار مونيكا) . وأما أنا فكنت أقلب النظر في ذلك العالم الصغير الغريب فأكاد أنسى كل شيء .

كان هناك فيرد ينبو المثال وقد رأيته يطلب اللتر الكامل من جيد النبيذ، فقلت لنفسي إنه لاريب قد أخذ عربوننا على تمثال للعذراء على الله على قبر أي تعيس من التعساء يوضع

وكان هناك توبي الرسام ، وكنت أراه يقنع في ذلك اليوم أيضاً بشرب الماء القراح وفي وجهه الصلابة والعزم- فأفكر في الصعاب التي يصادفها كل عبقري يأتي بالجديد .

وكان سوزي هناك أيضاً ؛ وجدته ضاحك الوجه لم تمنعه سنوه الخمسون من أن يضع في عروة سترته تلك الوردة الحمراء الملتهبة ، فلم أشك في أن علاقته مع تلميذته الصغيرة في الأكاديمية لم تزل على مايرام .

وأظل أتنقل بالنظر من مائدة إلى مائدة ، حتى ينتهي صاحبي وهو يهزني من ذراعي هزاً :

— فيرا الرسامة ! أتعرفها ؟

فأقول وما زلت شارد الذهن :

— كلا . ولكن يخيل إلي أن هذا الإسم قد سمعته من قبل .

— هي من أبرع الرسامات اللاتي عشن في روما

وكان هذا الإعجاب يبديه صاحبي — وهو الذي يبخل دائماً بالمديح — جديراً بأن يثير انتباهي . ولكن شيئاً غريباً في تلك المرأة هو الذي جعل نظري يتعلق بها فيتبعها وهي تبحث هنا وهناك عن مائدة خالية .

كانت ترفع رأسها كأنها ملكة . ولكن وجهها كان هادئاً ساخباً حتى كأنها شاعرة . وكان شعرها الغزير الذهبي يترسل ليناً على كتفيها فيوحي إلى النفس معاني الهدوء واللطف والبساطة .

وقد وقفت آخر الأمر عند عمود مغطى بخشب الجوز القديم فاطمأنت وحدها إلى مائدة . ولم يتأخر عنها جيانينو بربع اللتر المعهود . وأما صاحبي فقد عاد يقول وهو يرانى أطيل إليها النظر .

— ألا تجدها غريبة ؟ إنها لأعظم امرأة عرفتها وإن لها لقصة .

ولم يجعلني الح عليه في الرجاء كيما يقص علي ما كان يعلمه ، فقد كان يحس من نفسه كل الرغبة . وقال :

« كانت فيرا تعمل كنموذج للفنانين قبل أن تتوفر بنفسها على الرسم . وكان ينبغي لك أن تراها في ذلك الحين ، أعني قبل عشر سنين ، فقد كانت رائعة الحسن . وكان

جسمها الذى رأيته فى أمسيات كثيرة ، عاريا يشتمل تحت النور القوى فى ناديا القديم فى شارع مارجوتا ، شيئاً يفتن العين والقلب . ولعلك لاتاقى فى كبار الفنانين فى روما من لم يوح إليه هذا الجسم بعمل يعتز به فوق اعتزازه بأى شىء آخر . حتى ليقال إن الأستاذ (ف) الذى باع رسوماً رسمها لزوجه وبناته وهن عاريات أتم العرى قد أبى أن يفرط فى رسم لها ود الكثيرون شراءه بأغلى ثمن . وهو يقول إنه يريد أن يأخذه معه إلى القبر ، لأنه كل ماظفر به من دنياه

« ولم يكن الأستاذ (ف) فى ذلك الحين هو صاحب ذلك الرسم الكبير الذى يرتفع حتى يبلغ ثمانية أمتار ويزيد ، بل كان واحداً منا نحن الذين كنا نتردد على النادى كل مساء لكيما نرسم النموذج الحى لقاء صولديات قليلة ، لعلك تعلم كيف كنا نقتطعها من حاجات العيش اقتطاعا :

« وأقول إنه لولا ذلك لما استطاع الأستاذ (ف) أن يظفر بذلك الرسم الذى يعزه فوق إعزازه لأى شىء آخر ؛ فقد كانت تيرا تأبى أن تعرض فتنتها على شيوخ الفن فى المراسم الكبيرة الجافية ، وتؤثرنا وحدنا بنعمة الإلهام من جسمها العجيب . فقد كنا شبعتها التى تلتف حولها فى خضوع وعبادة .

« نعم كنا أتباعا لجمالها . وكانت تصطفى من جمعنا من تشاء . على أنك لم تكن تعلم ما الذى يدنيك منها وما الذى يقصيك عنها . فقد كنت تقرر أن بعض الحسن أولى أن يستميلها ، وأن بعض الشباب أحق أن ينال رضاها ؛ ولكنها كانت تعرض عن هذا وذاك ، وتقبل وأنت حائر والكل حيارى على القبح الذى كان يخطر لك أنه أشد ما ينفر ، والشيخوخة التى لم تحسب لها أى حساب .

« غير أنها كانت تعود فتستبدل الحسن بالقبح والشباب بالشيخوخة ، فلا أحد يتولاه اليأس من أن يفوز بمتعة ليلة . وهى كانت ليلة مفردة فلا يطمع أحد فى أكثر منها . والويل لمن علل النفس بالآمال وطمع فى دوام الحب . إنه كان يضيع قلبه ويتلف روحه

« وظلت فيرا على هذا النحو نموذجاً لحقيقة الجمال وصورة لإحدى ربات الأقدمين غريبات الأطوار ، حتى بدالها فى أمسية من الأمامى أن تجول بين أشتات اللوحات بعد جلستها الأولى لترى كيف رسمها الرسامون ووقفت عند لوحة فانطلقت تضحك .

لم يكن هناك رسم ولا شىء يشبه الرسم فى تلك اللوحة وإنما كان هناك على الأصح تراب الفحم امتزج به العرق الكثير ، فنشأت منه بقع سود كبار ، وإذا كان تحتها شىء فهو خيال امرأة لا يظهر للعين إلا على جهد

فقالت فيرا ، إذن فالرسم سهل يسير . فما يعجزنى أن أرسم شيئاً كهذا

ونظرت إلى صاحب اللوحة ، وهو فتى غض الأهاب من طلاب الأكاديمية فإذا به يستند إلى الحائط وهو يبتسم وكأنه يدافع عن نفسه بذلك الابتسام ، فقلت لنفسى إنه مسكين ، وإن أمره لم يكن عن جهل بالفن . وكنت على يقين ؛ فقد جرى لى نفس ما جرى لذلك الفتى يوم أن رأيت جسم فيرا العارى لأول مرة . ولكن العرق الذى تصبب منى كان أقل . ولعل هذا لأن حظى من فورة الشباب كان أيضا أقل . إلا أننى تمنيت بعد ذلك لو قد أسابنى كل ما أصابه أو أكثر . فقد وقع عليه الاختيار فى تلك الليلة ؛ ثم كان هو المختار أيضا فى الليلة التى بعدها ، وفى الليلة الثالثة ، وفى ليال أخرى متعاقبة . ثم بدأ نادينا يقل رواده لأن فيرا لم تعد تظهر . والشاب أيضا لم يعد يظهر . ثم علمنا أن الاثنين قد طارا معا إلى عش على سطح دار صغيرة فى (مونت ماريو)

وكف صاحبى عن حديثه لحظة ، فصب لى ولنفسه جرعة أخرى من نبيذنا القليل الذى كاد ينفد . وبحث فى كل جيوبه عن شىء يعطيه لذلك العازف المسكين . ثم وصل الحديث فقال :

لم تعد فيرا تعمل كنموذج . وكان يقال إنها أحبت عيشة البيت الساكنة المطردة ، إكثر مما أحبت عيشة

الملاذ الطليقة المنوعة ، لأنها أحبت رجلها . ولم تحبه لحسب بل كانت تعبده عبادة صادقة ، وكان يخيل إليك أنها ترد إليه بهذه العبادة كل العبادات التي أسلفناها لها

كانت تقاسمه حياته الصعبة ؛ بل كانت تأخذ لنفسها وحدها من حياته الوجه الصعب . وتبذل قصارى الجهد كيما تتيح له الهدوء واليسر والدعة

كانت تطحن الألوان ، وتعد له النيل ، وتصلح له الإطارات إلى جانب ما تقوم به من شؤون الدار

وكانت تقطع شارع (ميداليا دورو) الطويل في كل صباح على قدميها في ذهابها إلى السوق وعودتها ، لتقتصد (الصولديات) القليلة ، ولا تنفقها على الترام . والشراء من السوق كان وحده كلفة صعبة . فقد كان عليها أن تمر بالباعة كلهم فتستعرض ما لديهم في دقة وعناية ، قبل أن تقدم على شيء . وكانت تلتفت حولها في كل لحظة ، وتأخذ حذرها ، حتى لا تراها جارة من جاراتها الكثيرات . فقد كان يعز عليها أن يعلم الناس أن فيراري الأستاذ الجليل الفني يعاني شظف العيش ، حتى لتشتري امرأته أرجل الدجاج وأوراق الخس (الفرطة) والبيض المكسور

« ولكن شيزارينا الرسامة ، صديقتها وخليصتها ، قد اطلعت على سرها وجاءت تقص علينا النبأ في القهى اليوناني فأحسسنا مرارة الأسف . إلا أن فيرا نفسها لم تك تأسف . وكنت إذا قابلتها في بعض الطريق صدفة وما كنت تلقاها إلا صدفة ، حيتك وعلى ثغرها ابتسامة حلوة ، يتجلى فيها الرضا . فإن أطلت النظر إلى وجهها الذي بدأت تتغير قسامته بعض الشيء من أثر السنين في حياتها الجاهدة ، أو تأملت في ثوبها البسيط الذي حاولت بذوقها المالي أن تجعل له رواء ، أو تطلعت إلى شعرها الذهبي الذي لم تحسن ترجيله لعجلتها في الصباح رددتك في لطف كما ردتني مرة بقولها وهي تضحك : سيدي الأستاذ ! لا تنظر إلي هكذا ! إني امرأة صالحة ، وإني لأصمح..

« وكان إيمانها بفتاها كإيمان الشهداء لا حد له . فإذا قال لها قائل لماذا يتمتك فيراري بذلك المذهب الغريب في الرسم والناس لا يفهمونه ولا يرون فيه جمالا أجابته قائلة : إن فيراري نابغة يجهل الناس قدره ، ولا ضير عليه أن يلقى الصعاب ، فكل نابغة قد تعب قبل أن يدرك غايته

« وقد لقيتها بعد معرض عرض فيه فيراري بعض رسومه فحمل عليه النقاد حملة قاسية . وسألتها ماذا قال فيراري حين سمع ذلك النقد فقالت . وهي ثائرة النفس :

ماذا يعلم النقاد من حقيقة الفن ؟ إن الفن لا يعرفه إلا من عاش فيه . وقلت إني لا أحسبهم قد بعدوا عن الحق. فقالت وهي تبدي المزاح وتخفي الجد : سيدي الأستاذ أليس من الجائز أن تكون غيورا ؟ »

إن اللواتي يشبهن فيرا ندرة بين النساء ، أو ما علمت أن زوجتي حين ساءت حالي زمنا قصيرا لم يزد على شهر سعت إلي مرة بكل ما في المرأة من اللين كيما تقول إنها عثرت لي على عمل آخر أهون علي من الرسم وأكثر ربحا وهو وظيفة بواب ؟

« لقد كانت فيرا في الحق كنزا عظيما . إلا أن ذلك الفتى الغرير لم يقدرها قدرها . فقد أخذ بعد فترة من الزمن يميل عنها ويكثر من السهر خارج الدار متعللا لذلك بشتى العلل . وكانت فيرا تظن كل شيء إلا أن يكون الفتى قد بدأ يمل عشرتها . ولكنها علمت مرة بطريق الصدفة أن للفتى خطيبة من بنات (راستفرى) الفاويات أبوها صاحب مطعم وأن الفتى يقضي مع الصبية في المطعم وعلى شاطئ التيبر شطراً من المساء وشطرا من الليل

لم يكن في إصبع فيرا (دبلة) كالتي تلبسها كل حليلة لأنها لم تكن حليلته . ولكنها كانت في واقع الأمر زوجا كأفضل الأزواج . وإذن فقد كان لها أن تثور أو تبدي الغضب أو تصب على صاحبها اللوم ، ولكنها لم تلجأ إلى شيء من كل هذا

وعاد الفتى ذات ليلة ، فوجد عشاءه ساخنا مهيئا كما اعتاد أن يلقاه في كل يوم ، ووجد معه رقعة قصيرة ، تقول فيها أنها لن تعود

وما فعله الفتى بعد ذلك قد تستطيع أن تدركه بالبداهة